السياق في التراث العربي "الممارسات ومعالم النظرية"

فاطمة بن عيسى[1*]، العربي بومسحة[2]
1ـ المركز الجامعي أحمد ابن يحي الونشريسي تيسمسيلت، ben7811@gmail.com
2ـ المركز الجامعي أحمد ابن يحي الونشريسي تيسمسيلت، larbiaflah0@gmail.com

الاستلام: 2020/01/29. القبول: 2019/8/09. النشر: 2019/10/20

الملخص:
تدور حيثيات هذه الدراسة الموسومة بالسياق في التراث العربي"الممارسات ومعالم النظرية" حول قضية هامة ألا وهي السياق وتجلياته لدى العرب القدامى، إذ كان لهم السبق في البحث في السياق الذي من خلاله يُضبط المعنى بدقة. وقد حاولنا استجلاء هذه القضية لدى القدماء العرب وبالتحديد لدى البلاغيين واللغويين والفلاسفة المسلمينمن خلال الجاحظ، ابن جني وابن سينا، مبينين بذلك إسهاماتهم في الدرس الدّلالي العربي.

الكلمات المفاتيح: السياق؛ التراث العربي؛ النظرية السياقية؛ المعنى.

Practices and "The context in Arab Heritage "Milestones of Theory

Abstract:Therationale for this study contextually tagged in Arab revolves around an important "Practices and landmarks of theory"heritage issue, namely the context and its manifestations among the ancient Arab, as

[1*] **المؤلف المرسل:** فاطمة بن عيسى، fben7811@gmail.com

they had a head start in the context in which the meaning is precisely controlled. We heve attempted to clarify this issue with the ancient Arabs, specifically the rhetoric, linguists and Muslim philosophers through Al-jahiz, ibnjenni and ibnsina, indicating thus their contributions to the Arab semantic lesson.

Key words: context; HeritageArabic; contextual theory ;the meaning.

مقدمة:

يلاحظ من يجيل النظر في التراث العربي أن العلماء العرب قد بحثوا في المعنى والسياق وذلك لأن معنى اللفظة لا يتحدّد إلا من خلال السياق الذي يكشف عن المعنى المقصود، ولهذا فالسياق لدى العرب القدامى لا يقل أهمية عن الدرس الحديث، فقد أسهم فيه العلماء العرب على اختلاف مشاربهم من بلاغيين ولغويين ونقاد وأصوليين وكذا الفلاسفة المسلمين.

وهو ما حاولنا البحث فيه من خلال ربط دراسة السياق بالدرس العربي التراثي مبيّنين بذلك مدى إسهام التراثيون في السياق، وكيف تجلت إرهاصات النظرية السياقية الحديثة في التراث العربي؟ وكيف أسهم الدرس العربي التراثي في دراسة السياق؟ وفيما تجلى هذا الإسهام؟.

وقبل الحديث عن إرهاصات السياق لدى العرب القدامى ونظرتهم له لا بد من الوقوف على مفهوم السياق.

أ- لغة:

جاء في لسان العرب السياق "أصله سِواق فقلبت الواو ياءً لكسرة السين، وهما مصدران من ساق يسوقُ وفي الحديث:حضرْنا عمرو بن العاص وهو في سياق الموت"[1].

أما عند ابن فارس السياق "من مادة سَوُقَ السين والقاف أصل واحد، وهو من حَدْوُ الشيء، يقال ساقه يسوقه سوقا والسيقة: ما استيق من الدّواب ويقال سُقت إلى امرأتي صداقها وأسَقتُه والسُّوق مشتقة من هذا لما يُساقُ إليها من كل شيء والجمع أسواق والساق للإنسان وغيره والجمع سُوقٌ إنّما سميت بذلك لأنّ الماشيَ ينساق عليها"[1].

وعرفه الزمخشري: ساق النّعم فانساقت وقدم عليك بنو فلان فأقدتهم خيلا وأسقتهم إبلا وولدت فلانة ثلاثة بنين على ساق واحد: بعضهم في أثر بعض ليس بينهم جارية ورأيته يكرّ في سوق الحرب: في حومة القتال ووسطه[2]. ليتمحور المفهوم اللغوي للسياق حول التتابع، والتتابع بين الأشياء هو التسّاوق، ولا يكون متتابعا إلا إذا كان له غاية لابدّ من الوصول إليها، فلا تساق الإبل إلا لغاية، وكذلك سوْق المبيعات إلى السّوق، فالسياق في اللغة يدل على تتابع وانتظام في الحركة من دون انقطاع أو انفصال للتوصل إلى غاية محدّدة[3]. ويتبيّن من هذا أن مادة (س و ق) تدور حول القيادة والإحاطة؛ فسائق الشيء هو القائد له، أو المسيطر عليه أو الدافع له وهي معان متقاربة[4]. فيقوم تعريف السياق في المعجم على غاية يسعى لتحقيقها كما يدل على التتابع والقيادة. وليتضح معنى السياق أكثر لابد من المفهوم الاصطلاحي.

ب- اصطلاحا:

يقصد بالسياقتلك الأجزاء التي تسبق النص أو تليه مباشرة، ويتحدّد من خلالها المعنى المقصود[5]. فهو "يدلّ على تتابع الكلام وأسلوبه الذي يجري عليه، ويقصد به حوار الكلمات في التلاصق الرُّكني للجمل في الملفوظ، أي ما يسبقها وما يلحقها من مفردات"[6]. أي أن ائتلاف الألفاظ فيما بينها في سياق معين يؤدي إلى تبيان المعنى كون أن"الكلمة يتحدّد معناها من خلال السياق الذي ترد فيه، حيث أنّ للكلمة عدّة استعمالات سياقية وكل سياق يظهر أو يحدّد أحد هذه المعاني أو وجها منها"[7]. ليكون السياق بذلك ضم الكلمات بعضها إلى بعض، وترابط أجزائها واتصالها أو تتابعها وما توحيه من معنى وهي مجتمعة في النص أو الحديث[8]. فاجتماع الكلمات المفردة مع بعضها لتدل على معنى عام هو ما يقوم عليه السياق كما أن الكلمة يتغيّر معناها بتغيّر سياقاتها فكل سياق يحيل إلى معنى من المعاني التي يحملها اللفظ وذلك حسب سياق وقوعها.

السياق (context) أو السياق اللغوي (linguisticcontext) هو البيئة التي تحيط بصوت أو فونيم أو مورفيم أو كلمة أو عبارة أو جملة وهو تلك الأجزاء التي تسبق النص أو تليه

مباشرة ويتحدد من خلالها المعنى المقصود[9]. فالسياق وبالتحديد السياق اللغوي يرتبط بما تتشكل منه الكلمة والتي تعدّ عامل مساعد في تحديد المعنى من خلال مراعاة مستويات اللغة النحوية والصرفية والصوتية والدّلالية.

كما يعني السياق أيضا" مجموعة العوامل والظروف الاجتماعية وخاصة الثقافية التي أحاطت وتحيط بالمتكلّم والسّمع لذلك فهي تنعت بعوامل وظروف مواقفية كما يقال: سياقٌ مواقفي، وهو ما أطلق عليه ابن خلدون الأداء والأسلوب، فأكّد أنّه عبارة عن المنوال الذي يُنسج فيه التركيب أو القالب الذي يُفرغ فيه"[10]. فيوجد على الأقل في كل موقف تواصلي شخصان، أحدهما فاعل حقيقي، والآخر فاعل على جهة الإمكان أي المتكلم أو المخاطب على التوالي، وكلاهما ينتميان على الأقل إلى جماعة لسانية أي طائفة من الأشخاص لها نفس اللغة وترابط ضروب الاتفاق والتواطئ للقيام بالفعل المشترك الإنجاز، وطوال مدة معينة من الوقت فإن نشاطات عضوين (فأكثر) من الجماعة قد تتسق وتنتظم على معنى أن المتكلم ينتج عبارة أو ربما ليس ذلك فحسب، وإنما يصير فاعلا وينجز عددا من الأفعال الإنجازية[11]. وهذان الطرفان يشكلان بنية السياق التي تتأسّس عليهما وعلى الخواص المشتركة بينهما كما يتشكل السياق من الظروف الخارجية المحيطة به، ويقوم السياق على الجانب اللغوي من جهة والظروف المحيطة به من جهة ثانية فمراعاة هذه العوامل الخارجية تساعد في الوصول إلى المعنى.

وتحديد المعنى ونقله من معنى إلى آخر وهو خارج السياق أمر لا يتماشى وطبيعة اللغة التي هي في حقيقتها استعمال، والاستعمال سياق وتراكيب وعندما نتعامل مع اللغة فإننا لا نتكلم بالكلمات مفردة أو منفصلة عن الموضوع المصاغ لأجله[12]. ومنه فأحسن طريقة لفهم معنى الكلمة هو وجودها في التركيب الذي يسهم في إبراز معناها ويجعلها متباينة عن تلك التي تقاربها أو تبدو مشابهة لها، بالإضافة إلى الوظائف الدلالية ذات الارتباط بالمحيط والثقافة اللذين يعبران عن دلالة اللفظ المستقلة عن كلّ كلمات اللغة. فالعالم كما هو موجود ومتصوّر هو إنتاج لثقافة المجتمع ولنظام اللغة المعجمي الذي يتواصل به الأفراد، كلّ كلمة لها مرجعها في العالم الخارجي، توظّف في تركيب ترتبط بالعالم أو بجزء منه بطريقة تختلف عن الكلمات الأخرى. ليرتبط السياق بالجانب اللغوي من جهة وبالظروف الخارجية المحيطة بالكلام والموقف أو المقام الذي يكون فيه وكذا المتكلم والسامع و العلاقة بينهما من جهة أخرى[13]. فاستعمال اللغة وتداولها هو ما يتطلب تحديد دلالة اللفظة وضبطها كون أن اللفظة متعدّدة

المعاني ما يجعل الاستعمال كذلك متعدّد وبالتالي يتوجب النظر في سياق الكلام الواقع فيه اللفظ المفرد.

ويلاحظ من يمعن النظر في التراث العربي أن العرب القدامى قد تطرقوا للسياق وبحثوا فيه وذلك من خلال دراستهم للمعنى، فأسهم فيه البلاغيون واللغويون والفلاسفة المسلمين.

أولا: السياق لدى الجاحظ (ت255هـ):

السياق جانب أساسي في فهم المعنى في الدراسات العربية فنلفي للجاحظ إشارات عديدة متناثرة في كتبه ينتبه فيها إلى مسألة السياق الذي يفرض على المتكلم استخدام سجل بعينه على مستوى الدّلالة على مستوى التركيب في نفس الوقت، وهذا جانب مهم في فكر الجاحظ يستحق دراسة مستقلة، إذ يكفي أن نشير هنا إلى تنبه (الجاحظ) لخصوصية الاستخدام اللغوي للمجاز، حيث يرى أن المجاز لا يصح استخدامه في مجال المعاملات النفعية المباشرة، فيقول للناس أن يضعوا كلامهم حيث أحبوا إذ كان لهم مجاز إلا المعاملات، لأن سياقها العام وغرضها النفعي الإيصالي المباشر لا يستلزم ذلك بل ويجعله غير مستساغ[14]. إذ سبق الجاحظ الباحثين المحدثين في الوصول إلى السياق وتحديده بالرغم من اختلاف المصطلحات.

لقد أشار الجاحظ إلى السياق انطلاقا من تعريفه للبيان بأنه "اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يُفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائنا ما كان ذلك البيان ومن أي جنس كان الدّليل؛ لأن مدار الأمر الغاية التي إليها يجري القائل والسّامع إنما هو الفهم والإفهام؛ فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع"[15].فالبيان عنده كل ما يوحي إلى دلالة معينة سواء أكانت لغوية أو غير لغوية من إشارات وإيماءات تحمل دلالة معينة.

ويبدو أن مراده بالبيان أو الدّلالة هنا ما يشمل الدّلالة باللفظ وغيره من العناصر غير اللغوية التي تساهم في الكشف عن المعنى وقد فُسِّر هذا التعميم بقوله، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري إليها القائل والسامع إنما هو الفهم والإفهام فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع، والتعبير «بأي شيء» يتسع لإدخال عنصر السياق اللغوي والخارجي في مجال الدّلالة وتوضيح المعنى"[16].والجاحظ لم يصرح بلفظ السياق وإنما

أشار إلى مفهومه من خلال تعريفه للبيان. فقد كان للعرب البادرة الأولى في البحث الدّلالي وبالضبط السياق وخير دليل على ذلك هو تنبههم لنظرية النظم والتي بدأت بوادرها الأولى على يد الجاحظ، ففي حديثه عن البيان يشير إلى اللفظة وهي مشتركة مع غيرها من الألفاظ لا إلى الكلمة المفردة وهنا إشارة الجاحظ إلى السياق ودوره في فهم المعنى.

وفي قول الجاحظ في مفهوم البيان " كل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب ..." إشارة صريحة للجانب اللغوي وغير اللغوي للسياق، ذلك أن "الناظر في اللغة على وجه التقعيد والوصف والتفسير ينتهي بالضرورة إلى اعتبار المتغيرات الخارجية التي تكتنف المادة اللغوية واستعمالاتها لأنها تشكل حجر زاوية في فهم الكلام بين المتلقي والمرسل، كما أنها تمثل منطقة تأويلية واضحة لبناء المعنى الصحيح الذي قد لا يتحقق وفق البناء اللغوي فقط، بل لابد من قراءة الإشارة التي تحكم الموقف اللغوي وعناصره الداخلية والخارجية"[17]. فتحقق الجانب اللغوي في اللغة لا يعني بالضرورة وضوح المعنى وبيانه فلابد من إدراك العوامل الخارجية التي تؤثر أيّما تأثير في جلاء المعنى وفهمه وهو ما نجد الجاحظ قد أكد عليه، "فلا مندوحة إذا من الوقوف على السياق، فعلى ضوئه يتحقق التفاعل بين الذات والموضوع، ولا غرو في ذلك فلكل مقام مقال"[18]. وهذه المقولة الأخيرة هي ما أسست للسياق في الدرس الدّلالي العربي والتي كانت الشغل الشاغل للجاحظ بحيث تأكد من دور السياق غير اللغوي واللغوي في تحديد المعنى وفهمه.

وقد أعطى الجاحظ المزية في فهم المعنى إلى الجانب اللغوي و غير اللغوي والذي أطلق عليه مصطلح الإشارات. فينهض الجاحظ إلى مقاربة الدّلالات -بما فيها الدّلالات غير اللسانية- في إطارها المعرفي العام والشامل، لا الجزئي المبتسر، رابطا -ضمن ذلك- اللغة بالسمة، والسمة باللغة على نحو ما، متوصلا من خلال ذلك إلى أن اللغة -باعتبارها علامة لسانية وأداة بيان- ليست هي آلة البيان الوحيدة، فالإشارة والعقد آلتان للبيان أيضا، ناهيك عن الخط الذي يعدّ شكلا من أشكال اللفظ معبرا عنه[19]. حيث إن الإشارة وسيلة ضرورية في العملية التواصلية وبالتالي لا يمكن الحديث عن اللغة كوسيلة للتواصل دون النظر للإشارات ضمن السياق الذي ترد فيه.

إذ أن الحاجة إلى معرفة السياق نابعة من أن صاحب النص لا يتقيد بحرفية اللغة، ولأن المعاني أيضا متجدّدة باستمرار، ولابد لكي نحدّدها أو نتأثر بها من الوقوف على سياقها الذي وردت فيه، كما أن صاحب النص قد يستخدم الكلمات استخداما جديدا يكسبها معنى

خاصا؛ وتبحث عن علاقات جديدة الكلمات في علاقاتها بعضها ببعض وبالبيئة المحيطة أيضا[20]. فلابد لفهم أي معنى النظر في السياق الذي وقع فيه الكلام. فقد أعطى الجاحظ المزية في فهم المعنى إلى الجانب اللغوي و غير اللغوي والذي أطلق عليه مصطلح الإشارات.

هكذا قرر الجاحظ فكرة السياق حين ذكر الصفات الثلاث التي يجب أن تتوفر في الكلام لكي يكون بليغا، وأوّلها رشاقة اللفظ وعذوبته، مع اليسر والسهولة وهو خاص باللفظ، وثانيها خاص بالمعنى وهو اعتماد المعنى الظاهر القريب الواضح والعزوف عن الغموض والإضمار، وثالثها خاص بأحوال المقام وهو توجيه للكلام، فيكون بكلام الخاصة إن كان المقصد الخاصة، ويكون بكلام العامة إن كان المقصد العامة"[21]. فالسياق لديه يتمحور حول اللفظ من جهة والمعنى من جهة أخرى مع حسن الصياغة والتركيب بالإضافة إلى مراعاة البيئة الخارجية والظروف المحيطة بالمتكلم ومن هذه العناصر تأسس السياق لدى الجاحظ.

ويُضبط المعنى في السياق وإبرازه في بعض المواقف قد لا يقتصر على الدراسة اللغوية وما تقدمه من نتائج فقط، إنما لابد من وجود عناصر أخرى تتمثل في العناصر المقامية أو مكونات المقام، بالإضافة إلى عوامل أخرى كالسياق التاريخي[22]. لذلك وجب مراعاة السياق بنوعيه اللغوي وغير اللغوي وهذا ما لم يغفل عليه الجاحظ قديما، فالمعنى بذلك لا يعنى بالكلمة المفردة وإنما يهمه السياقات الواقعة فيها تلك الكلمة، وكون السياق اللغوي مفهوم لا يفي بالغرض للوصول إلى المعنى وإنما يتطلب ذلك تحديد السياقات الخارجية للكلام وجميع الأطراف الفاعلة في الحدث الكلامي. ليتبين بذلك أنه "لم يبد اللغويون والدّلاليون العرب القدامى اهتمامهم بالدّلالات المركزية والسياقية فقط، بل اهتموا بكل ما يحيط بهذه الأخيرة من ألوان وظلال ومعان وحواف؛ مثل تلك الشحنات العاطفية التي يحملها الكلام المبطن بالأحاسيس والمشاعر المعبرة والمواقف الشخصية. كما اهتموا أيضا بالحمولة الفكرية التي تنطبع بها جملة أو نص ما، بما في ذلك الخلفية التاريخية للعلامة المفردة داخل التركيب، وآفاقها الدلالية ومجالات استعمالاتها الشرعية والوضعية وغيرها"[23]. حيث ينطوي تحت لواء السياق اللغوي كل من الجانب العاطفي أولا والجانب الذهني أو الفكري ثانيا وكل ما يحيط بالكلمة من بيئة اجتماعية وثقافية تؤثر في المعنى فإلغاء السياق الخارجي يؤدي لا محالة إلى خلل في المعنى وعدم فهمه.

وتأسيساً على ما سلف يكون تحرك الجاحظ لضبط خصائص الصياغة الجميلة المخرجة للقول وفق معايير البلاغة شاملاً، يطول اللفظة في مستواها الإفرادي ثم في علائقها بالمعنى،

إلى غاية فهم لحمة الوحدات في السياق الواحد في ما أسماه بالنظم أو حسن التأليف والنسج[24]. ويُرجِع الجاحظ الأولوية للسياق في فهم المعنى من خلال مراعاة الجانب اللغوي وغير اللغوي وإن لم يصرح الجاحظ بلفظ السياق وإنما أشار إلى التركيب والصياغة ودوره في فهم المعنى. وهكذا فدراسة الجاحظ للمعنى لم تخرج عن إطار السياق الذي دلّ عليه بالصياغة المحكمة لتوالي الألفاظ الدالة واشتراكها في التركيب ليتضح بذلك المعنى وبدل من القول بالسياق ذكر البلاغيون وفي مقدمتهم الجاحظ مصطلح المقام.

ثانيا: السياق لدى ابن جني (ت392هـ):

لقد درس ابن جني المعنى في إطار لغوي بحت وهو ما تجلى في دراسته لتراكيب وصيغ الكلام من خلال الفعل أو اللفظ والذي لم يفاضله عن المعنى وإنما جعلهما طرفان متكاملان، ونظرته هذه للمعنى لم تقف عند هذا الحدّ وإنما أشار من خلال بحثه الدّلالي إلى جانب آخر وهو موقع الكلمة في الجملة أو ما يعرف بالسياق، فعالم لغوي مثل ابن جني لا يقنع بالعلاقات الدّلالية بين المفردات في التركيب اللغوي بإسناد الصفات والأفعال ووضع الكلمات كما الفت في المتعارف اللغوي للغة ما، بل أنه ينفذ إلى سمات خاصة يراها هو ويتطلبها السياق، فيخرج باللغة من العالم الوضعي إلى العالم السياقي فيأتي بأساليب وصيغ وأوضاع جديدة وتتطلب معرفة هذه الأوضاع معرفة دقيقة بالدّلالات الخاصة بالتراكيب وارتباطها بغيرها من العناصر الأخرى[25]. فدراسة ابن جني للسياق لم تكن بمنأى عن البحث في المعنى والذي أكد عليه ابن جني بأنه لا يتضح بدقة إلا من خلال سياق الكلام حيث رأى أن الكلمة المفردة واسعة المعنى ما يحدّد دلالتها وقوعها في سياق معين.

لقد توصل الباحثون العرب القدامى إلى فكرة السياق في وقت مبكر، وهو ما تجلى في دراسات العرب، فنجد أن من اللغويين الذين تبلورت عندهم فكرة السياق بشكل واضح (ابن جني ت392هـ) ولعل إشارته إلى الحال المشاهدة أبرز دليل على اهتمامه بالسياق، وقد أشار إلى الحال المشاهدة وعدّها دليلا على حذف الفعل لأن معنى الكلام لا يتأتى فصله بأي حال من الأحوال عن السياق الذي يعرض فيه، فمنه قولهم لمن سدّد سهما ثم أرسله نحو الغرض فسمعت صوتا، فقلت: القرطاس والله، أي أصاب القرطاس والفعل هنا قد حذفته العرب وجعلت الحال المشاهدة دالة عليه ونائبة عنه[26]. وكلام ابن جني عن الحال المشاهدة فيه إشارة إلى السياق غير اللغوي من خلال الظروف الخارجية المحيطة بالكلام.

والبيئة الخارجية المحيطة بالكلام هو ما اصطلحت عليه النظرية السياقية الحديثة بالسياق غير اللغوي. وقد خرج عبد الكريم مجاهد بنتيجة في بحث له عن ابن جني، تتعلق بسياق الحال هي «أن الأصالة في سياق الحال إنما هي لابن جني من اللغويين العرب وليست للغوي الانجليزي فيرث»، وذلك لأن فيرث (Firth) يعتبر رائد المدرسة الاجتماعية أو مدرسة سياق الحال (Context situation) في علم اللغة الحديث[27]. إذاستعمل ابن جني سياق الحال قديما والذي توصلت إليه النظرية السياقية حديثا، والقول بأن ابن جني قد بحث في سياق الكلام يظهر من خلال بحثه في تراكيب الكلام فقد تبيّن أن ابن جني تناول دلالة السياق من خلال:

1- تناوله التركيب الكلي للكلام.

2- وضع الكلمة في التركيب.

3- الحال المشاهدة.

4- المعتقدات الدينية[28].

فقد تناول ابن جني التركيب الكلي في الكلام وكذا وضع الكلمة في اللغة وهو ما يندرج تحت السياق اللغوي والذي " تراعى فيه القيمة الدّلالية المستوحاة من عناصر لغوية، فالكلمة يتحدّد معناها من خلال علاقاتها مع الكلمات الأخرى في النظم، وهذا لا يشتمل على الجملة وحدها بل ينتظم الفقرة أو الصفحة أو الفصل أو الباب أو الكتاب كله"[29]. فأشار ابن جني إلى الدّلالة السياقية من خلال تركيب الكلام ومجاورة كلمة لأخرى وكذا من خلال التقديم والتأخير وجل القضايا النحوية التي من خلالها يتحدّد المعنى والتي بذلك لا تخرج عن إطار السياق والتركيب.

كما أبرزت مقولات ابن جني الدّلالية السياقية تظهر من خلال تناوله قضية اللفظ والمعنى الذي يتضح من خلالها أن ابن جني تناول السياق بشقيه اللغوي وغير اللغوي من خلال إضفائه بعدا جديدا للعلاقة بين اللفظ والمعنى. فقد خالف فيه السابقين جميعا لأنه وازن بين اللفظ والمعنى وجعلهما صنوين مترابطين لا يمكن الفصل بينهما[30].فهذا جانب آخر يبيّن أن ابن جني درس المعنى في إطار السياق حيث تحدث عن المعنى وأقر بقيمته وتحدث عن المعنى وأشاد بدوره في تبيان المعنى فقد قال بتكامل الطرفين.

إذ نجد "من مقولات ابن جني الدّلالية السياقية وضع الحرف في التركيب أي زيادته وحذفه يتم لغرض يقتضيه السياق أو المقام"[31]. فيراعي جانب مهم في اللغة وهو المقام أو الموقف كما يسمى في الدراسات الحديثة، فإذا كان العالم اللغوي فيرث يرى في نظريته الدّلالية أن المعنى هو المحصلة النهائية لتحليل الحدث اللغوي تدريجيا على مستويات اللغة كافة، الاجتماعية والصوتية والصرفية والنحوية والمعجمية في قوله "ولمعرفة المعنى يمكن أن نتقبل الحدث اللغوي بشكل كامل، وبعد ذلك نختبره على مستويات مختلفة بالترتيب التنازلي مبتدئين بالسياق الاجتماعي، ونتقدم خلال النحو والمفردات إلى الأصوات ووظائفها فإن ابن جني سبقه إلى هذه الرؤية إلا أنه لم يبلورها على شكل نظرية بل كانت آراء وأفكارا مطروقة في ثنايا مؤلفاته. فابن جني يرسي لنا قواعد أساسية في فهم الدّلالة فهو لا يركز على الجانب اللغوي للدّلالة بل يقرنها بسياق حالها، ويرجح الحال على الجانب اللغوي[32]. فسبق ابن جني الدراسات الحديثة في بحثه عن السياق من خلال الدرس الدّلالي لديه وبالتالي جاءت دراسته للسياق متفرقة في مصنفاته.

فقد ناقش غالبية الآراء والنظريات التي ناقشها اللغويون المحدثون في كتابه «الخصائص» وبخاصة في الاشتقاق وأصل اللغة والعلاقة بين اللفظ والمعنى وصلة ذلك بأصل اللغة[33]. فكان السياق لدى ابن جني خاصية مهمة في تبيان المعنى، كما أكد على أن اللفظة المفردة واسعة الدّلالات لا بد من تجاور ألفاظ أخرى في التركيب حتى يتبيّن معناها.

ثالثا: السياق لدى ابن سينا (ت467هـ):

أما فيما يخص الفلاسفة المسلمين فنجد ابن سينا لم يهتم لا باللفظ المفرد ولا بالمعنى على حساب اللفظ وإنما جعل الأولوية في فهم دلالة الكلام في تلاحم اللفظ والمعنى في التركيبحيث "يكتفي في إطلاق المعنى على الصورة الذهنية بمجرد صلاحيتها لأن بقصد باللفظ سواء لها أو لا"[34]. فالمعنى بذلك هو الصورة الذهنية، فقد تميز ابن سينا في دراسته للمعنى حيث اهتم بالبعد النفسي والذهني اللذين يصاحبان العملية الدّلالية[35]. يشير ابن سينا بهذا البعد النفسي والذهني إلى السياق العاطفي كما اصطُلح عليه حديثا.

وهذا السياق العاطفي "هو الذي يحدّد طبيعة استعمال الكلمة بين دلالتها الموضوعية ودلالتها العاطفية، ويتضح هذا -كما يقول أولمان- في مجموعة معينة من الكلمات نحو (حرية وعدل) إذ تشحن عادة بمضمونات عاطفية. ويضرب أولمان مثالا آخر هو كلمة (جدار) التي ترد

على لسان المتكلم محملة بما تفيض به نفسه من الانفعالات، فيرى الجدار حلوا تارة ولئيما تارة أخرى. إن هذا -كما هو واضح- يختلف عن دلالة (الجدار) الموضوعية المتعارفة"[36]. فللبعد العاطفي النفسي دور هام في تحديد المعنى، ذلك أن الكلمة تتغير مدلولاتها بين كونها تحمل معنا عاطفيا أو موضوعيا.

وابن سينا في بحثه عن المعنى أشار إلى أهمية تداخل طرفين هامين هما اللفظ والمعنى "لذلك نجد ابن سينا في حصره للعلاقة القائمة نظريا بين اللفظ والمعنى لا يقيّدها فيقول في ذلك: "ولأن بين اللفظ والمعنى علاقة ما"[37]. فيشير بذلك إلى وجود علاقة قائمة بين اللفظ والمعنى وهو ما توصل إليه الباحثون حديثا غير أنه لم يحدّد طبيعة هاته العلاقة، فاللفظ بذلك يكون إفصاحا لما في النفس من أفكار ومعاني.

لقد بحث هذا الفيلسوف في الدرس الدّلالي وتحدّد بذلك أن" أهمية مباحث ابن سينا في الدّلالة لا تكمن في عمق تصوّرها لجوهر الفعل الدّلالي فحسب وإنما في بعدها الشمولي للسان البشري، وهو هدف يعكف عليه علماء الدّلالة المحدثين"[38].حيثكانت غاية ابن سينا في بحثه أبعد من فهم الدّلالة بل بحث في الدّلالة هو وسيلة لفهم اللغة عامة.

فبالإضافة إلى العامل النفسي عند ابن سينا هناك جانب آخر وهو المجتمع أو المحيط الخارجي حيث" يشير ابن سينا في رصده لآليات الفعل الدّلالي إلى تلك القدرة التي أوتيها الإنسان المتكلم، بحيث مكنته من نقل المفاهيم التي التقطها من العالم الخارجي إلى نفسه وقد انتقل من الحس إلى التجريد"[39]. إذ نلاحظ أن ابن سينا في بحثه عن المعنى قد ركز على عنصر مهم وهو الجانب النفسي والذهني في فهم المعنى، كما قال بدور المجتمع والمحيط في تبيان وفهم المعنى وهو ما يتقاطع فيه مع أصحاب النظرية السياقية الحديثة التي اعتبرت الجانب الاجتماعي عنصرا ضروريا في الوصول إلى المعنى.

خاتمة:

وفي ختام بحثنا نصل إلى جملة من النتائج مفادها أن السياق ظاهرة من الظواهر الدّلالية التي اهتم بها العرب القدامى أيّما اهتمام، لأن السياق هو من يحدّد معنى اللفظة المفردة ويكشف عن معناها المقصود، فاللفظة وهي مفردة واسعة الدّلالة ما يضبطها هو السياق الذي تقع فيه، مراعين بذلك جميع جوانبه اللغوية وغير اللغوية.

فأسهم العرب إسهاما معتبرا في دراسة السياق كل حسب مرجعيته، وتجلى ذلك من خلال مؤلفاتهم التي تفرقت فيها دراسة السياق وإن اختلفت التسميات والمصطلحات. فجاءت دراسة العرب القدامى للسياق متفرقة إذ لم تقم دراسة السياق بمنأى عن باقي القضايا الدّلالية واللغوية، كما لم يحدّدوه بمصطلح السياق وإنما دارت تسمياتهم بين الحال والمقام والموقف، فبادر التراثيون بالبحث في السياق وأصلوا له.

[1] - ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3/ ص117.

[2] - ينظر: الزمخشري، أساس البلاغة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ج1/ص469.

[3] - ينظر: محمد عبد العزيز عبد الدايم، فيصل المناع، نظرية السياق بين التوصيف والتأصيل والإجراء، دار البصائر، ط1، بيروت، 2015، ص248.

[4] - ينظر: المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى دراسة أسلوبية، ط1، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي ، 2011، ص 13.

[5] - ينظر: عواطف كنوش المصطفى، الدّلالة السياقية عند اللغويين، ط1، دار السياب، لندن، 2007، ص52.

[6] - عبد القادر سلامي، علم الدّلالة في المعجم العربي، دار ابن بطوطة، ط1، عمان، 2007، ص98.

[7] - محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب للنشر، ط1، القاهرة، 2001، ص196.

[8] - ينظر: عواطف كنوش المصطفى، الدّلالة السياقية عند اللغويين، ص 52.

[9] - ينظر: فاطمة الشيدي، المعنى خارج النص أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب، دار نينوي، ط1، دمشق، 2011، ص20.

[10] - عبد القادر سلامي، علم الدّلالة في المعجم العربي، ص99.

[11] - ينظر: فان دايك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدّلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000، ص258.

[12] - المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، ص06.

[13] - ينظر: أحمد عزوز، أصول تراثية في نظرية الحقول الدّلالية، اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، 2002، ص08.

[14] - ينظر: قادة عقاق، في السيميائيات العربية قراءة في المنجز التراثي، مكتبة الرشاد، ط1، الجزائر، 2004، ص74.

[15] - الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، ، 1998، ج1/ص76.

[16] - عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، جامعة الأزهر، ص15.

[17] - فاطمة الشيدي، المعنى خارج النص أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب، ص12.

[18] - محمد عبد العزيز عبد الدايم، عرفات فيصل المناع، نظرية السياق بين التوصيف والتأصيل والإجراء، ص96.

[19] - ينظر: قادة عقاق، في السيميائيات العربية قراءة في المنجز التراثي، ص35.

- ينظر: المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى، ص 18. [20]
- صورية جغبوب، أصول ودلالات السياق المقامي في التراث العربي، مجلة كلية الآداب واللغات، بسكرة، الجزائر، ديسمبر 2014، العدد 16، ص362. [21]
- ينظر: المرجع نفسه، ص356. [22]
- قادة عقاق، في السيميائيات العربية قراءة في المنجز التراثي، ص77. [23]
- ينظر: الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، إتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، 2001، ص 43. [24]
- ينظر: عواطف كنوش المصطفى، الدّلالة السياقية عند اللغويين، ص134. [25]
- ينظر: المرجع نفسه، ص111. [26]
- ينظر: أحمد نعيم الكراعين، علم الدّلالة بين النظر والتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط1، 1993، ص86. [27]
- ينظر: عواطف كنوش المصطفى، الدّلالة السياقية عند اللغويين، ص130. [28]
- محمد محمد داود، اللغة وعلم اللغة الحديث، ص197. [29]
- ينظر: المرجع نفسه، ص139. [30]
- عواطف كنوش المصطفى، الدّلالة السياقية عند اللغويين، ص137. [31]
- ينظر: المرجع نفسه، ص140. [32]
- أحمد نعيم الكراعين، علم الدّلالة بين النظر والتطبيق، ص85. [33]
- عوادي كاظم مشكور، البحث الدّلالي عند ابن سينا، مؤسسة البلاغ، د ط، مصر، 2003، ص25. [34]
- عبد الجليل منقور، علم الدّلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، 2001، ص138. [35]
- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، ط3، دمشق، 2008، ص356. [36]
- عبد الجليل منقور، علم الدّلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، ص143. [37]
- المرجع نفسه، ص 144. [38]
- المرجع نفسه، ص145. [39]

المصادر والمراجع:

أحمد عزوز، أصول تراثية في نظرية الحقول الدّلالية، اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، 2002.1-
2- أحمد محمد قدور، مبادئ اللسانيات، دار الفكر، ط3، دمشق، 2008.
3- أحمد نعيم الكراعين، علم الدّلالة بين النظر والتطبيق، المؤسسة الجامعية للدراسات، بيروت، ط1، 1993.
4- الأخضر جمعي، اللفظ والمعنى في التفكير النقدي والبلاغي عند العرب، إتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، 2001.
5- الجاحظ، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، ط7، القاهرة، ، 1998، ج1.
6- عبد الجليل منقور، علم الدّلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، اتحاد الكتاب العرب، ط1، دمشق، 2001.
7- الزمخشري، أساس البلاغة، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1922، ج1.

8- صورية جغبوب، أصول ودلالات السياق المقامي في التراث العربي، مجلة كلية الآداب واللغات، بسكرة، الجزائر، ديسمبر 2014، العدد 16.
9- عوادي كاظم مشكور، البحث الدّلالي عند ابن سينا، مؤسسة البلاغ، د ط، مصر، 2003.
10- عواطف كنوش المصطفى، الدّلالة السياقية عند اللغويين، ط1، دار السياب، لندن، 2007.
11- ابن فارس، مقاييس اللغة، ج3.
12- فاطمة الشيدي، المعنى خارج النص أثر السياق في تحديد دلالات الخطاب، دار نينوي، ط1، دمشق، 2011.
13- فان دايك، النص والسياق استقصاء البحث في الخطاب الدّلالي والتداولي، تر: عبد القادر قنيني، إفريقيا الشرق، المغرب، 2000.
14- عبد الفتاح عبد العليم البركاوي، دلالة السياق بين التراث وعلم اللغة الحديث، جامعة الأزهر.
15- قادة عقاق، في السيميائيات العربية قراءة في المنجز التراثي، مكتبة الرشاد، ط1، الجزائر، 2004.
16- عبد القادر سلامي، علم الدّلالة في المعجم العربي، دار ابن بطوطة، ط1، عمان، 2007.
17- محمد عبد العزيز عبد الدايم، فيصل المناع، نظرية السياق بين التوصيف والتأصيل والإجراء، دار البصائر، ط1، بيروت، 2015.
18- محمد محمد داود، العربية وعلم اللغة الحديث، دار غريب للنشر، ط1، القاهرة، 2001.
19- المهدي إبراهيم الغويل، السياق وأثره في المعنى دراسة أسلوبية، ط1، أكاديمية الفكر الجماهيري، بنغازي، 2011.